الجمعية التعاونية للبترول

المفلحون

المحاضرة التى ألقاها بدار الجمعية

الأستاذ

حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة السابق

فى يوم { الثلاثاء ٢٨ شعبان ١٣٩٦ هـ
الموافق ٢٦ أغسطس ١٩٧٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المفلحون

أيها السادة الأعزاء :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو وأصلى وأسلم على أعظم الرسل الكرام سيدنا ومولانا محمد الذى أخرجنا الله على يديه من الظلمات إلى النور ، وجعل فيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر مع المفلحين من المؤمنين المتقين ، وأسترضى الله تعالى عن سلف الأمة الصالحين من سادتنا الصحابة الكرام ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، وأسأله سبحانه أن يجزى عنا مشايخنا خيرا كثيرا ، فقد علمونا من أمر ديننا ما كنا نجهل ، وسلكوا بنا طريق الهدى والرشاد ولم يسألونا على ذلك أجرا ، فأجرهم عند ربهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم وجعل الجنة مثواهم ، آمين .

(أما بعد)

فإنى أجد لزاما على أن أتقدم بالشكر الجزيل للجمعية التعاونية للبترول ممثلة فى شخص الأخ الحبيب العزيز الأستاذ أحمد غنيم عضو مجلس الإدارة الذى تفضل فدعانى إلى إلقاء هذه المحاضرة التى أرجو أن تنقلنا بإذن الله تعالى علما وعملا من كروب الدنيا الدنية إلى فيحات

الآخرة الرضية ، فنكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما .

أيها المستمعون الكرام :

تكلم كتاب الله الكريم فى آيات عدة عن " المفلحين " فأحببت أن أتحدث إليكم فى شأنهم لتنالنا بركاتهم فنترسم بعون الله وتوفيقه خطاهم ، ونعمل بعملهم فنسعد بصحبتهم فى جنات النعيم ، وقد قال سبحانه فى سورة الواقعة (ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين)[١] وهم أصحاب اليمين . وقد روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هما جميعا من أمتى " بل لو شاء الله تعالى لكنا لفضله من السابقين الذين قال تعالى فيهم فى السورة ذاتها (والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين)[٢] وما ذلك على الله بعزيز .

<u>السابقون وأصحاب اليمين</u> :

وقد فسر العلماء قوله تعالى (ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين) فقالوا : معناه جماعة ممن تبع النبى صلى الله عليه وسلم وآمن به وعاينه ، وجماعة ممن آمن به وكان بعده ولم يعاينه . أما فى تفسير قوله تعالى :

---

[١]- الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ من سورة الواقعة .
[٢]- من الآية ١٠ إلى الآية ١٤ سورة الواقعة .

(ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين) فقد قالوا : أصحاب اليمين كثيرون فى الأولين والآخرين ، أما السابقون الأولون فقليل من يلحق بهم من الآخرين .

فضل القرآن الكريم :

وإننا وإن لم يكن لنا شرف رؤيته صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فقد شرفنا الله فورثنا القرآن الكريم ناطقا بصدق رسالته ، وصانه سبحانه على مر القرون من التحريف والتبديل حيث تعهد بحفظه فى قوله سبحانه فى سورة الحجر " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون "[١] وقد تحدى سبحانه ولازال يتحدى الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا ، وإذا كان العرب وهم فى أوج فصاحتهم وبلاغتهم قد عجزوا عن تحديه وهو نازل بلغتهم فكيف يتحداه غيرهم ، وهذا العجز عن معارضة القرآن الكريم من أعدائه إنما يزيدنا أطمئنانا إلى صحة إسلامنا .

فضل الإسلام :

والإسلام هو الدين الذى إرتضاه الله للسعداء من المؤمنين ، وقال فى شأنه فى سورة المائدة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وبين لنا تعالى أنه لا يرضى بالإسلام بديلا فقال

---

[١] - الآية : ٩ سورة الحجر .

عز وجل فى سورة آل عمران (ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)[١] ونعوذ بالله أن نكون من الخاسرين .

من هم المفلحون :

الفلاح هو الفوز بالمرام – أى المطلوب – والنجاة من المكروه والمفلحون هم المؤمنون المتقون العاملون بشرع الله إعتقادا وتطبيقا ، فيؤمنون بما أوجب عليهم سبحانه الإيمان به ، ويأتمرون بأوامره ، وينتهون بنواهيه ما وسعهم فى ذلك الجهد ، ونستيبن ذلك من مطلع سورة البقرة إذ يقول جل وعلا (الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذى يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)[٢] .

فلنتأمل قليلا فى روعة تلك السمات التى يتميز بها المفلحون : فهم أولا يؤمنون بوجود الله ووحدانيته والجنة والنار والملائكة وسائر الإيمانيات الغيبية وثانيا يقيمون الصلاة ومحافظون عليها ، وثالثا يؤتون الزكاة ، ولا يبخلون بأدائها . كل ذلك عن إيمان بالقرآن الكريم وما سبقه من الكتب السماوية ويقين لا شك فيه بيوم القيامة

---

[١]- الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .
[٢]- الآيات : ص ١ إلى ٥ من سورة البقرة .

وثواب الطاعات وعقاب المخالفات وقد صارو بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح مهتدين على الدوام بما هداهم الله إليه ، وكانوا مفلحين ، ففازوا بالمرام ، ومرامهم هو رضاء الله عنهم ، ونجوا من المكروه ومكروههم عقابه الذى يعاقب به الكافرين والفاسقين ، وقد طمأنهم سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم بأنهم نالوا رضاه لأنهم كرهوا عقابه فتركوا مخالفته وعملوا بطاعته ، فقال تعالى فى سورة البينة (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه)[١] ويقول سيدى الإمام القشيرى فى لطائف إشارته فى أوصافهم التى جاءت فى مطلع سورة البقرة : العبد بقلبه وببدنه وبماله ، فبايمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم ، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم ، وبانفاقهم قاموا بأموالهم ، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم ، وحين قاموا لحقة بالكلية إستوجبوا كمال الخصوصية . وأنت ترى من ذلك الفرق الكبير بين مآل أهل الكفر ومآل أهل الإيمان وإن تساووا فى البشرية ، لكن أهل الكفر صاروا بكفرهم الذى اختاروه لأنفسهم شر الخلائق ، أما أهل الإيمان فقد صاروا بايمانهم الصادق وعملهم الصالح خير العباد ، وشتان بين الفريقين ، وصدق سبحانه إذ يقول فى سورة الشورى (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر

---

[١]- الآية ٦ إلى الآية ٨ من سورة البينة .

أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير)[١] وصدق سبحانه إذ يقول فى سورة النساء " إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً[٢] .

صحة العقيدة وصلاح العمل :

وإذا تدبرنا فى قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) نرى أنهم جمعوا بين صحة العقيدة وصلاح الأعمال ، وإنما جمعوا بين الأمرين لعلمهم أن الله تعالى تعبد القلوب بالعقيدة وتعبد الجوارح بالعبادات ، وقد جمع الله سبحانه بقدرته فى الإنسان بين الجسد والروح ، وشاء سبحانه أن ينتفع القلب من أفعال الجوارح وأن ينتفع الجسد من مواجيد الروح ، فإذا أحب العبد ربه بروحه حملت روحه بحبها لله الجسد على الطاعات التى كلفنا سبحانه بها ، وإذا نشط الجسد فى الطاعات إزدادت الروح حبا وهياما فى ربها ، وسبحان من كلفنا نُشرفنا بتكليفه ، وسبحان من أودع فى العبادات أسرارها التى تتزكى

---

[١]- الآية : ٧ من سورة الشورى .
[٢]- سورة النساء الآيات من ١٥٠ إلى ١٥٢ .

بها أرواح العباد فى صلتها بالله تعالى ، ويعود نفع ذلك عليهم لا عليه تعالى لأنه غنى بنفسه عن خلقه فلا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه ، وإنما يعود النفع ويقع الضرر على العباد أنفسهم ، وصدق سبحانه إذ يقول فى سورة فصلت (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد)[١] وإذ يقول فى سورة يونس (إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون)[٢] وقد جمع المؤمنون المتقون بين صحة العقيدة وصلاح الأعمال ليلقوا ربهم يوم القيامة بيض الوجوه أخذا بقوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) .

أهمية أسلافنا الصالحين :

وإذا أردنا أن نرى صورة حية من جهاد أسلافنا الصالحين لأنفسهم بالأعمال الصالحة فلنقرأ على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى فى سورة الزمر (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب * قل يا عباد الذين آمنوا أتقوا ربكم للذين

---

[١]- الآية : ٤٦ من سورة فصلت .
[٢]- الآية : ٤ من سورة يونس .

أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[١] وقوله تعالى فى سورة الذاريات (إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفى أموالهم حق للسائل والمحروم)[٢] وبهذا الوصف الرائع يلفتنا سبحانه إلى جهاد أنفسهم فى آناء الليل ، أى فى أوله وأوسطه وآخره ، حيث كانوا يصلون والناس نيام ، ومع هذه الهمة يرون أنهم لم يفوا ربهم حقه ، فيستغفرونه فى الأسحار بعيداً عن أعين الناس ويتقربون إليه بأداء حق الفقراء فرضا ونفلا ، اعترافا بفضله وقياما بشكره إذ أغناهم من فضله وأوسع لهم من رزقه .

<u>مناقب أخرى للمفلحين</u> :

وفى مطلع سورة " المؤمنون " يصف سبحانه المفلحين فيقول (قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون*

---

[١]- الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة الزمر .
[٢]- الآيات : من ١٥ إلى ١٩ سورة الذاريات .

والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)[١] .

ونلحظ أنه فى مطلع سورة البقرة وصف سبحانه المفلحين بإقامة الصلاة وفى الوصف المتقدم وصفهم بالخشوع فيها ، والخشوع هو التواضع وتذلل القلوب لعلام الغيوب ، ويقتضى التواضع فى الصلاة أن يخشع القلب وأن تسكن الجوارح فلا تتحرك إلا بحركات الصلاة ، فلا يلتفت المصلى يمينا أو شمالا أو يعبث بثوبه أو ذقنه أو يغمض عينيه ، فقد رأى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث فى صلاته بلحيته فقال صلى الله عليه وسلم : (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه) .

<u>أهمية الصلاة</u> :

والصلاة سميت صلاة لأنها صلة بين العبد وربه ، يناجى العبد فيها ربه ويناجيه ربه ، وهى أهم فريضة بعد التوحيد ، وكما فرض الله التوحيد فى كل شريعة فرض الصلاة ، ويؤيد ذلك القرآن الكريم فى مواضع شتى ، فقد جاء فيه على لسان سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى سورة إبراهيم (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) وقال تعالى واصفا سيدنا اسماعيل عليه الصلاة والسلام فى سورة مريم (وكان

---

[١]- الآيات : من ١ إلى ١١ سورة المؤمنون .

يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) وقال تعالى فى شأن سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام فى سورة آل عمران (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى) وقال تعالى فى خطابه لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فى سورة طه (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدنى وأقم الصلاة لذكرى)[١] وقال تعالى فى شأن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فى سورة مريم (قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا)[٢] ومما قال تعالى لسيد المرسلين عليه أفضل صلاة المصلين قوله تعالى فى سورة العنكبوت (أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون)[٣] .

وقوله تعالى (وأقم الصلاة) أى داوم على إقامتها ، ويتضمن أمره لرسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ، أمر المسلمين بها ، كأنه تعالى قال : وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، ومعنى نهيها أنها سبب للإنتهاء عنهما لأن فيها مناجاة الله فلابد أن تكون مع إقبال تام على طاعته سبحانه وإعراض كلى عن معاصيه ، ويقول سيدى الأمام القشيرى – رضى الله عنه – فى لطائف إشارته عند تلك الآية الكريمة .

---

[١]- آية : ١٤ من سورة طه .
2- الآيتان : ٣٠ ، ٣١ سورة مريم .
[٣]- الآية : ٤٥ سورة العنكبوت .

أى من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، أى على معنى أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، كقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى ينبغى للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قدر أن واحدا منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الإيمان ، كذلك من لم ينته عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة .

ويقال : بل الصلاة الحقيقية ما تكون ناهية صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن لم يكن من العبد انتهاء ، فالصلاة ناهية على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل ، ولكنه يصر ولا يطيع تلك الخواطر ،

ويقال : بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن الصلاة كان وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها .

ويقال : الفحشاء هى الدنيا ، والمنكر هو النفس .

ويقال : الفحشاء هى المعاصى ، والمنكر هو الحظوظ .

وما أروع إشارات الأمام عند قوله تعالى (ولذكر الله أكبر) إذ يقول رضى الله عنه :

ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ، لأن ذكره قديم وذكر الخلق محدث .

ويقال : ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ، لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال : ذكر الله لك أكبر من ذكره لك[١] .

---

[١] - يبدو لى أنه يشير إلى قوله تعالى (فاذكرونى أذكركم) .

ويقال : ذكره لك بالسعادة أكبر من ذكرك له بالعبادة .

ويقال : ذكر الله أكبر من أن يعيش أحد من المخلوقين بغيره .

ويقال : ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطانا فلحرمة ذكره زلات الذاكر مغفورة ، وعيوبه مستورة .

أقول : وقد جاء فى تفسير الإمام أبى السعود رضى الله عنه : عن أنس رضى الله عنه : أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيئا من الفواحش إلا ارتكبه ، فوصف للنبى صلى الله عليه وسلم حاله فقال : إن صلاته ستنهاه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله .

أقول : وفيما روى الأئمة الأجلاء البخارى ومسلم والترمذى والنسائى : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه[١] شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء ، قال : فكذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " .

وإذا نظرنا إلى ما يعود على المصلين من بركة الصلاة التى يمحو الله بها خطاياهم لم نعجب أن يقول المؤذن عندما ينادى على الصلاة : " الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً

---

[١] - الدرن معناه الوسخ .

رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة حى على الصلاة ، حى على الفلاح حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله " فقوله : " الله أكبر " أى أكبر من أن يشغلنا عن أداء فرضه شاغل من شواغل الدنيا الفانية ، والشهادتان اقرار بالعقيدة الصحيحة ، وقوله تعالى : "حى على الصلاة " أى أقبل ولا يشغلك عن الصلاة شاغل ، وقوله : " حى على الفلاح " أى إن الصلاة مع العقيدة الصحيحة هى سبيل الفلاح إن أردت الفلاح ولذلك ورد فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم " المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة " وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لو كنت مؤذنا ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد ، وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو كنت مؤذنا لكمل أمرى ، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم اغفر للمؤذنين " ثلاثا . قال : فقلت يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف ، قال صلى الله عليه وسلم " كلا يا عمر ، إنه سيأتى على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم وتلك لحوم حرمها الله عز وجل على النار ، لحوم المؤذنين ، قال : وقالت عائشة رضى الله عنها : ولهم هذه الآية (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين [١]) قالت : فهو المؤذن إذا قال : "حى على

---

[١]- الآية : ١ من سورة فصلت .

الصلاة " فقد دعا إلى الله ، وهكذا قال ابن عمر رضى الله عنهما وعكرمة رضى الله عنه : إنها نزلت فى المؤذنين .

أقول : وقد جاء فى تفسير الإمام ابن كثير رضى الله عنه والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم ، كما قال عبد الرازق عن معمر عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحا فى إجابته وقال (إننى من المسلمين) هذا خليفة الله .

وسيدى الإمام الحسن البصرى يشير بقوله المتقدم إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علمنا صلوات الله وسلامه عليه أن نأنس ونسعد فى صلاتنا بالله تعالى فقال صلوات الله وسلامه عليه : " وجعلت قرة عينى فى الصلاة " كما علمنا أن نستعيذ عند الصلاة من الشيطان الرجيم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه إذا قام إلى الصلاة يقول : " أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه " وما أكثر ما علمنا صلوات الله وسلامه عليه .

والسادة الصوفيه يقولون : إن الصلاة من أعمال الآخرة فإذا قمت إلى الصلاة فأقبل على أمر آخرتك واطرح شواغل الدنيا عن قلبك ، وصل صلاة مودع للدنيا ، وهم يلفتوننا إلى ثناء الله تعالى على المؤمنين

الذين لا تشغلهم دنياهم عن أمور آخرتهم فى قوله تعالى فى سورة النور (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب)[١] فهؤلاء المؤمنون يبيعون ويشترون ويتقلبون بين الناس لكنهم لا يؤخرون الصلاة عن أوقاتها ، ولا يبخلون فى أداء الزكاة كما أوجبها الله عليهم ، فهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله طلباً لرضاه .

أقول : وكما نطهر أعضاءنا بالماء الطهور قبل الصلاة ، كذلك يجب أن نطهر قلوبنا من شواغلها الدنيوية فى الصلاة ، وقد كان بعض أسلافنا الصالحين يقول : إذا وقفت فى الصلاة لا يهمنى منها إلا ما أقوله أو يقال لى ، وكان إمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتغير لونه إذا حان وقت الصلاة ، فلما سألوه فى ذلك قال : جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، ومن كلمته هذه نتعلم أن الصلاة وسائر العبادات والتكاليف الشرعية أمانة بيننا وبين الله سبحانه فيجب أن نؤديها على وجهها الصحيح لله الذى ائتمنا عليها حين كلفنا بها . ومن طريف ما قرأته عن سيدى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه مات له أخ فقام إلى الصلاة ، فسئل فى ذلك فقال : إن الله

---

[١]- الآيات : من ٣٦ إلى ٣٨ من سورة النور .

تعالى يقول (استعينوا بالصبر والصلاة) فأردت أن أقرن الصلاة بالصبر أى ليستعين بها على تحمل البلاء الذى أصابه بموت أخيه ، وهذا من فقهه بالقرآن الكريم .

تدبر القرآن :

إن المصلى يقرأ الفاتحة فى كل ركعة ، ويقرأ بعدها بعض الآيات فى الركعتين الأوليين ، فإذا تدبر كلام الله سبحانه ذاق حلاوته ، وأنس به فى جنب الله سبحانه ، وإنى ناقل إليكم تدبر السادة الصوفية لآيات الفاتحة لعلنا نذوق من حلاوتها بعض ما يذوقون .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

يقول سادتنا الصوفية : الباء بهاء الله عز وجل ، والسين سناء الله عز وجل ، والميم مجد الله عز وجل ، والله هو الإسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها ، (والرحمن الرحيم) إسمان رقيقان نفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده ، وهم يقصدون بقولهم هذا أنه سبحانه تعرف إلى عباده بالرحمة ولم يتعرف إليهم بالبطش والجبروت ، لئلا ييأس مذنب من رحمته فى أى وقت . فقد سبقت رحمته غضبه ، فهو برحمته الواسعة غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، وما أروع ما نقلناه عن سيدى وشيخى الشيخ على عقل من إلهامه الفورى حين قال رضى الله عنه مخاطبا ربه بكلام كثير يرجو رحمة ربه :

بينى وبينك سر ليس يعلمه سواك فاستر على المسكين ما اجترحا
إنى أسأت ولكنى التجأت لكم من يلتجىء لكمو فى القصد ما جنحا
لو قيل للقلب ماذا أنت مقترح لم يلق غير حمى الرحمن مقترحا
أو كان كالطود[١] ذنبى فى ضخامته وقلت يا رب عنى الذنب قد مسحا
الذنب يحزننى والعفو يفرحنى فاعجب لكاسب ذنب ينتشى فرحا
فما أرانى من الزلات منقبضا إلا ورحت بفضل العفو منشرحا

(الحمد لله رب العالمين)

يقول السادة الصوفية : كأن سائلا سأله تعالى : لم اختصصت بالحمد ؟ فقال : لأنى رب العالمين ، أنا أوجدتهم برحمتى ، وأمددتهم بنعمتى ، فلا منعم غيرى ، فاستحققت الحمد وحدى ، منى كان الإيجاد ، وعلى دوام الإمداد ، فأنا رب العباد ، فالعوالم كلها على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها فى قبضتى وتحت تربيتى ورعايتى .

وفى هذا المقام أقول للسادة المستمعين الأعزاء أن الحمد هو المدح والثناء يختص بالله تعالى وحده ، أما الشكر فيكون لله سبحانه ويكون أيضا لمن جرت نعمة الله للمؤمن على أيديهم من خلقه ، ويبين لنا ذلك قوله تعالى فى سورة لقمان (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير)[٢] .

---

[١] - الطود هو الجبل .
[٢] - الآية رقم ١٤ من سورة لقمان .

(الرحمن الرحيم)

يقولون : وهذه التربية التى ربى الله تعالى خلقه إنما هى رحمة منه وإحسان ، لا لزوم عليه ولا إيجاب ، ولذلك وصل قوله (رب العالمين) بقوله الرحمن الرحيم ، أى الرحمن بنعمة الايجاد ، الرحيم بنعمة الامداد نعمتان ما خلا موجود منهما ، ولابد لكل مكون منهما ، أنعم أولا بالايجاد وثنى بتوالى الامداد .

(مالك يوم الدين)

يقولون : أنا المالك على الإطلاق . والأمر لنا على الدوام ، لمن فهم عنا من الأنام ، وليت شعرى أى وقت كان الملك لسواه ، حتى يقع التقييد بيوم القيامة لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة . أقول : وهم يقصدون أن الملكية الصورية فى الدنيا تخدع العوام فيظنون أنهم مالكون والحقيقة أنهم مملكون ومن أعطاهم وملكهم هو الله ، لأنه تعالى مالك الملك فى الدنيا والآخرة ، ولكن الظواهر تخدع الغافلين عنه فلا يفقهون أن العبد وما ملكت يداه لسيده الذى خلقه ورزقه من فضله وإبتلاه فيما آتاه فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى كريم .

(إياك نعبد وإياك نستعين)

يقولون : (إياك نعبد) أى نخضع ونذل ونعترف بربوبيتك ، ونوحدك ونخدمك ، (وإياك نستعين) على ما كلفتنا بما هو لك ، وإليك المشيئة والإرادة فيه ، والعلم والإخلاص لك ، ولن نقدر على ذلك

إلا بالمعونة والتسديد لنا منك ، إذ لا حول لنا ولا قوة إلا من عندك ، ألست تراه تعالى يقول لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون)[١] وقال لهم فى مقام آخر (ويوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) ففى غزوة بدر خرجوا بالذلة لله من حولهم وقوتهم ، فجاءهم عون الله ، وفى غزوة حنين نظروا لكثرتهم وقوتهم فى بادىء الأمر ، فلم تغنيهم الأسباب عن معونة المسبب وهذا ما يعلمنا الافتقار إليه سبحانه فى كل حال ، لأنه تعالى مالك الحال والمآل .

(إياك نعبد) شريعة (وإياك نستعين) حقيقة ، (إياك نعبد) إسلاما (وإياك نستعين) إحسانا (إياك نستعين) عبادة (وإياك نستعين) عبودية ، وإن شئت قلت (إياك نعبد) لأهل العمل لله وهم المخلصون ، (وإياك نستعين) لأهل العمل بالله وهم الموحدون ، العمل لله يوجب المثوبة ، والعمل بالله يوجب القربة ، العمل لله نعت كل عابد ، والعمل بالله نعت كل قاصد ، العمل لله قيام بأحكام الظاهر ، والعمل بالله قيام بإصلاح الضمائر .

ويضيف السادة الصوفية قائلين :

ويقول القارىء (إياك نعبد وإياك نستعين) بلغة الجمع وإن كان مفردا ، ليندمج بهذا الخطاب فى جماعة المؤمنين بالله من الملائكة والإنس والجن ، وفى ذلك إشارة إلى بركة الجماعة ، وصدق مولانا رسول الله

---

[١] - الآية من ١٢٣ سورة آل عمران .

صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " الجماعة رحمة والفرقة عذاب ويد الله مع الجماعة " .

ثم إن كل عمل من أعمال الدنيا أو الآخرة يحتاج الإنسان للنجاح فيه إلى التوفيق والصبر والقوة وكلها بيد الله سبحانه بدليل قوله عز وجل (وما توفيقى إلا بالله)[١] وقوله تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله)[٢] وقوله سبحانه (ماشاء الله لا قوة إلا بالله)[٣] ومن ذلك نرى أن الاستعانة بالله تعالى واجبة علينا فى كل الأعمال ، وليكن شعار كل مؤمن (ما مكنى ربى فيه خير) .

(أهدنا الصراط المستقيم)

يقولون : أى أرشدنا إلى دين الإسلام ، الذى هو الطريق إليك بمعونة منك وهى البصيرة ، فإننا لا نهتدى إلا بك ، فاهدنا مرادك منا من الصدق والإخلاص فى العبودية والخدمة ، أو اهدنا هدى العيان بعد البيان ، لنستقيم لك حسب إرادتك ، أو أهدنا هدى من يكون منك مبدؤه ليكون إليك منهاه ، أو ثبتنا على الطريق المستقيم والمنهاج القويم .

(صراط الذين أنعمت عليهم)

يقولون : أى منازل الذين أنعمت عليهم بالمحبة والمعرفة وحسن

---

[١]- الآية : ٨٨ من سورة هود .
[٢]- الآية : ١٢٧ من سورة النحل .
[٣]- الآية : ٣٩ من سورة الكهف .

الأدب فى الخدمة ، وقد بينتهم الآية الكريمة (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)[١] .

(غير المغضوب عليهم)

يقولون : أى المطرودين عن باب العبودية ، أو الذين وقفوا عن السير بإتباع الحظوظ والشهوات ، فوقعوا فى مهاوى العصيان والمخالفات .

(ولا الضالين)

يقولون : أى المفلسين المحرومين من نفائس المعرفة ، أو الذين حبسهم الجهل والتقليد ، فلم تنفذ بصائرهم إلى إخلاص التوحيد .

<u>توجيهات الإمام الغزالى</u> :

ويوجهنا الإمام الغزالى فى شأن الفاتحة فيقول رضى الله عنه فى كتابه الأحياء : إذا قلت (بسم الله الرحمن الرحيم) فافهم أن الأمور كلها بالله ، وأن المراد بالاسم هنا المسمى ، وإذا كانت الأمور كلها بالله ، فلا جرم أن الحمد لله كله .

وإذا قلت (الرحمن الرحيم) فأحضر فى قلبك لطفه لتتفتح لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك ، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف من قولك (مالك قوم الدين) ثم جدد الإخلاص بقولك (إياك نعبد) ، وجدد

---

[١] - الآية : ٦٩ سورة النساء .

العجز والإحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك (وإياك نستعين) ثم أطلب حاجتك وقل (أهدنا الصراط المستقيم) الذى يسوقنا إلى جوارك ، ويفضى بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا ، واستشهد بالذين أفاض عليهم نعم الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب عليهم من الكفارالزائفين .

تقسيم الصلاة :

وتسمى الفاتحة بأسماء كثيرة ، منها الفاتحة وأم الكتاب وأم القرآن ، والمناجاة ، والتفويض وسورة الصلاة . وقد ورد فى الحديث القدسى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل . يقول العبد (الحمد لله رب العالمين) يقول لملائكته : حمدنى عبدى ، يقول العبد (الرحمن الرحيم) يقول الرب : أثنى على عبدى ، يقول العبد (مالك يوم الدين) يقول الله : مجدنى عبدى ، يقول العبد (إياك نعبد وإياك نستعين) يقول الله عز وجل : هذه الآية بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل يقول العبد (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يقول الله : فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل . هذا وقد سميت الفاتحة سورة الصلاة لأنها جزؤها ، فذلك من باب تسمية جزء الشىء باسم كله ، وسميت أم القرآن لأنها جمعت معانى القرآن كمله باختصار ، وكأن القرآن بعدها تفصيل لها ، وذلك لأنها جمعت الإلهيات فى قولنا (الحمد لله رب العالمين)

وقولنا (الرحمن الرحيم) والدار الآخرة فى قولنا (مالك يوم الدين) والعبادات كلها من الأعتقاد والأحكام التى تقتضيها والأوامر والنواهى فى قولنا (إياك نعبد وإياك نستعين) والشريعة كلها فى قولنا (أهدنا الصراط المستقيم) والأنبياء وغيرهم فى قولنا (صراط الذين أنعمت عليهم) وطوائف الكفار فى قولنا (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ويقول صلوات الله وسلامه عليه : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . ويمن الله علينا بالفاتحة فى قوله الكريم فى سورة الحجر (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم)[١] والسبع المثانى هى الفاتحة كما ورد فى حديث رواه البخارى ومسلم : قال صلى الله عليه وسلم هى الفاتحة ، وقال المفسرون سميت مثانى لأنها تثنى فى كل ركعة ، وهى سبع آيات ، فإن عدت البسملة آية منها – وفى هذا خلاف بين الفقهاء – تكون الآية الأخيرة (صراط الذين أنعمت عليهم ... إلى آخرها هى السابعة ، وإن لم تكن البسملة منها فتكون السابعة (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ويقدر القارىء قبل أول الفاتحة كلمة : " قولوا " ليكون ما قبل قراءة (إياك نعبد وإياك نستعين) من مقول العباد القارئين للفاتحة .

<u>التأمين بعد الفاتحة</u> :

ويقول المؤمن بعد الفراغ من قراءة الفاتحة " آمين " والتأمين سنة ،

---

[١] - الآية : ٧٨ من سورة الحجر .

معنى " آمين " أى يا رب استجب ويقول سيدى الإمام القشيرى عن التأمين فى لطائف إشارته رضى الله عنه : كأن القارىء يستدعى بقوله " آمين " التوفيق للأعمال والتحقيق للآمال . ويحط رجله بساحة الافتقار ويناجى ربه الكريم بلسان الإبتهال ، ويتوسل بتبريه عن الحول والاستطاعة إلى حضرة الجود ، وأقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الإستعانة لتحقيقه بصدق الإستغاثة .

<u>الصفات الأخرى</u> :

نكتفى بهذا القدر عن خشوع المفلحين فى صلاتهم ، وننتقل إلى أوصافهم الأخرى التى وردت فى مطلع سورة المؤمنون ، يقول عز وجل (والذين عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

<u>الأعراض عن اللغو</u> :

أى يعرضون عن لغو الكلام ، واللغو هو كل كلام لا ينفع فى أمر الدنيا أو الدين ، والوقت عندهم ثمين لا يجوز أن يضيعوه سدى ، وقد وصفهم سبحانه فى سورة الفرقان بقوله تعالى (والذين لا يشهدون

الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما)[1] أى لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه ، وكذلك لا يشهدون زورا ليبطلوا به الحق . وإذا مروا على سبيل الاتفاق من غير قصد باللغو أكرموا أنفسهم عن الوقوف عليه أو الخوض فيه ضنا بوقتهم أن يضيع فيما لا ينفع أو فيما يضر .

أهمية الزكاة :

أما ما تعبدهم الله تعالى به من الزكاة المفروضة ، فإنهم يؤدونها طيبة بها نفوسهم ، لأن الزكاة مطهرة للأموال ، وقربة لله تعالى ، وقد أراد بنا الخير حين كلفنا بها سبحانه لنعالج بها شح النفوس وبخلها ، ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : ما قصر أحد فى الزكاة والحج إلا سأل الرجعة عند الموت ، وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى فى سورة المنافقون : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل مسمى فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون)[2] ومعنى " أصدق " أى أزكى ، ومعنى " وأكن من الصالحين " أى أحج . وقد قال سيدنا عبد الله بن عباس كذلك :

---

[1] - الآية : ٧٢ من سورة الفرقان .
[2] - الآيٰ : ٩ إلى الآية ١١ سورة المنافقون .

هذه أشد آية على المؤمنين فى القرآن ، فما قصر أحد فى فريضة الزكاة أو الحج إلا تمنى الرجعة عند الموت ، أى إلى الدنيا ، أقول : وعبثا يتمنى ذلك المقصر إذ يقول سبحانه فى إستحالة ما يتمناه (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) وما أروع ما يحضنا الله تعالى به على الإنفاق فى سبيله حيث يقول فى سورة محمد (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)[١] .

ونفهم من ذلك القول الكريم أن الأموال من أمور الدنيا الفانية ، فهى موقوتة تمضى سريعا كما يمضى اللهو واللعب ، وأن الإيمان والتقوى من أمور الآخرة التى يدخر لنا جزاؤها عند الله ، وقوله تعالى (ولا يسألكم أموالكم) أى أن تنفقوها كلها على الفقراء بل أوجب عليكم البعض دون الكل ، ومعنى (فيحفكم) أى يبالغ فى طلبها كلها فيستأصلها بتمامها (ويقال فى اللغة أحفى شاربه أى أستأصله) وقوله تعالى (ويخرج أضغانكم) أى كراهتكم لدين الإسلام ومحبتكم لجمع الأموال بما جلبت عليه نفوسكم من البخل ، والبخيل مفضوح عند الله . وقد روى الإمام الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه " أنه صلى الله

---

[١]- الآية : ٣٦ إلى ٣٨ سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

عليه وسلم هذه الآية (... وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) قالوا : ومن يستبدل بنا ؟ وكان سلمان جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخد سلمان فقال : هذا وأصحابه . وقوله تعالى (ثم لا يكونوا أمثالكم) أى فى عصيان الله والتولى عن طاعته بل يكونون مطيعين وممتثلين لأوامره عز وجل .

ويظن بعض الناس خطأ أن الاسلام يزهد المسلمين فى كسب المال ، ويستندون فى ظنهم هذا إلى أن الإسلام يحذر من الدنيا والاغترار بها ، ويقلل شأنها فى أعين المسلمين ، ولو كان الاسلام يتعارض مع كسب المال ، ما فرض الله الزكاة على الأموال المختلفة من محاصيل زراعية ، ومواشى ، وبضائع التجارة ، وأموال نقدية ، وإنما حذر الإسلام المسلمين من الإفتتان بالدنيا إن هى أقبلت على أحدهم لأن كثيرا من الأغنياء تغرهم أموالهم ويغفلون بها وهى فانية عن آخرتهم وهى باقية .ولهذا نبهنا سبحانه إلى أننا ممتحنون بزينة الحياة الدنيا حتى لا نقف عند ظاهرها بل نجتازها بالأعمال الصالحة التى يثبتنا الله تعالى عليها فى الآخرة إذ يقول سبحانه " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وأنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا "[١] فقوله تعالى " ما على الأرض " أى من الحيوان والنبات والأشجار والأنهار ... إلخ ، وقوله تعالى " أيهم أحسن عملا " أى أزهد " وصعيدا جرزا " أى فتاتا يابسا .

---

[١]- الآيتان : ٧ ، ٨ من سورة الكهف .

وصدق إمامنا على بن أبى طاب كرم الله وجهه حين قال فى الدنيا : إنها تغر وتضر وتمر ، وحين قال أن الدنيا وما فيها من البليات حلالها حساب وحرامها عقاب .

ويعرف السادة الصوفية الزهد فيقولون بحق وذوق : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . ويشهد بصحة كلامهم هذا أن الأغنياء من سادتنا الصحابة كانوا زاهدين ، بل بلغ من زهد سيدنا أبى بكر رضى الله عنه أنه خرج عن كل ماله فى سبيل الله ، وحين سأله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى أبقيت لعيالك ؟ قال فى ثقة بالله تعالى : أبقيت لهم الله ورسوله ، وقال سيدنا عثمان رضى الله عنه : لولا أنى خشيت أن يكون فى الإسلام ثلمة أسدها بهذا المال ما جمعته .

وقد رأينا من تصرفات سادتنا الصحابة فى أموالهم أنهم لم يقفوا فيها عند حد الزكاة المفروضة بل جاوزوه بكثير ، فقد قدم سيدنا أبو بكر كل ماله ، وقد سيدنا عمر نصف ماله ، وكذلك فعل سيدنا عبد الرحمن ابن عوف ، وسخا سيدنا عثمان فمول الجيش إبلا وزادا ونفقة جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

وأذكر فى هذه المناسبة أن ابن بشار الفقيه ذهب إلى الإمام أبى بكر الشلبى – خليفة الإمام الجنيد رضى الله عنهما – وسأله : كم فى خمس من الإبل ؟ وأراد بسؤاله أن يعرف مدى فقهه بالأحكام الشرعية ،

فقال له الشبلى رضى الله عنه : تريد زكاتها ؟ قال : نعم ، فقال الشبلى : فى واجب الشرع شاة . وفيما يلزم أمثالنا كلها فقال ابن بشار : ألك فى ذلك إمام ؟ فقال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : أبو بكر الصديق ، فقد خرج عن كل ما يملك فى سبيل الله ، وعندما سمع ابن بشار ذلك ذهب إلى الفقهاء متغير الوجه ممتقع اللون وقال لهم : أضعنا عمرنا فى المجادلات وذهب الصوفية بالخير كله .

وكثيراً ما يقرن الله تعالى فى كتابه الكريم الصلاة بالزكاة لأن الصلاة قربة بدنية والزكاة قربة مالية كما أنه تعالى يحض على الأنفاق تطوعا فى النافلة إلى جانب ما فرضه سبحانه من فريضة الزكاة ، كقوله تعالى فى سورة البقرة (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)[1] وهذه الآية الكريمة تفيد أن البر ليس كله فى الصلاة ولكنه يشمل إلى جانب الصلاة أعمال أخرى صالحة وأخلاق كريمة عددتها الآية فأضافت إلى الصلاة صحة العقيدة وإيتاء الصدقات نافلة وتطوعا للمحتاجين الذين عددتهم الآية وأداء الزكاة المفروضة مع الوفاء بالعهد لأنه تعالى يحب

---

[1] - الآية : ١٧٧ من سورة البقرة .

من المؤمنين أن ينجزوا وعدهم إذا وعدوا ، وأن يوفوا بنذرهم إذا نذروا ، وأن يبروا بحلفهم إذا حلفوا ، وأن يصدقوا فى قولهم إذا قالوا ، وأن يؤدوا الأمانة لمن ائتمنهم عليها ، كما يحب منهم أن يصبروا فى البأساء أى شدة الفقر ، وفى الضراء أى المرض ، وحين البأس أى فى شدة القتال فى سبيل الله ، فإن هم فعلوا كل ما عددته الآية كانوا صادقين فى إيمانهم وكانوا من أهل البر والتقوى عند الله سبحانه وتعالى .

ويعلمنا الله تعالى الإخلاص فى إنفاق المال فيقول عز شأنه فى سورة البقرة (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنيلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم * يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير)[1] كما يقول سبحانه فى سورة البقرة (وما أنفقتم

---

[1] - الآية : ٢٦١ إلى ٢٦٥ سورة البقرة .

من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ما للظالمين من أنصار * إن تبدو الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير * ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا إبتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)[١] .

ويحذرنا الله سبحانه من وسوسة الشيطان وصد المؤمنين بوسوسته عن الإنفاق فى سبيل الله فرضا أو نفلا ، فيقول سبحانه فى سورة البقرة (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم)[٢] ويمدح الله تعالى كرام المؤمنين الذين يبذلون أموالهم فى سبيل الله سراً وجهراً وليلاً ونهاراً إرضاء له تعالى فيقول عز وجل فى سورة البقرة (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٣] وقد قيل إن هذه الآية نزلت فى شأن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار ، عشرة آلاف بالليل ، وعشرة آلاف بالنهار ، وعشرة آلاف بالسر ، وعشرة آلاف بالعلانية ، ويقول العلماء وكون ما ذكر سبباً لنزولها لا يقتضى خصوص الحكم به بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

---

[١]- الآية : ٢٧٠ إلى ٢٧٢ سورة البقرة .
[٢]- الآية : ٢٦٨ سورة البقرة .
[٣]- الآية : ٢٧٤ سورة البقرة .

الرحمة بالفقراء والضعفاء :

ويربينا سبحانه وتعالى على البر بالفقراء والعطف عليهم وإطعامهم فيقول جل جلاله فى سورة الإنسان (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا)[١] .

ولنتأمل فى تلك الآيات الكريمة لنرى كيف أثابهم الله بما قدموه فى دنياهم من أعمال صالحة إرضاء لله تعالى ، وقد أبرز الله صدقهم فى الوفاء بما نذروا فعله من الطاعات التى يتقربون بها إلى ربهم ، ومن وفى بما أوجبه على نفسه نذرا كان بما أمره الله به أوفى . ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شىء يفعله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من نذر أن يطيع الله فليطعمه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه " فهؤلاء الأبرار كانوا فى دنياهم موفين بالعهود التى عاهدوا الله عليها ، وإنما وفوا بالعهود ليقينهم بأن الله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة لأنه تعالى يقول فى سورة الإسراء (وأوفوا

---

[١]- الآيات من ٥ إلى ١٢ سورة الإنسان .

بالعهد إن العهد كان مسؤولا)[١] وقد خافوا يوم القيامة لإيمانهم بالبعث بعد الموت ، وأطعموا الطعام على حبه أى مع أحتياجهم إليه فهم من أهل الإيثار الذين قال تعالى فى وصفهم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[٢] وخصوا بالإطعام المسكين واليتيم والأسير ، لأن المسكين لا يملك قوت يومه فهو عاجز عن كسب ما يكفيه ، واليتيم فقد من يعوله فهو محتاج للعطف عليه فى صغره ، والأسير لا يملك حرية السعى على معاشه .

وجاء فى تفسير الإمام الجمل رضى الله عنه أن تلك الآيات نزلت – كما قال عطاء – فى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث آثر هؤلاء الثلاثة بطعامهم ، ويشيد السيد / محمد إقبال الباكستانى طيب الله ثراه بهذا الكرم العلوى فيقول فى شعره العبقرى كما ترجمه عنه صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان زاده الله فضلا وتوفيقا :

ولزوج فاطمة بسورة هل أتى تاج يفوق الشمس عند ضحاها

ويشيد بكرم سيدتنا فاطمة الزهراء رضى الله عنها وأرضاها فيقول :

فمها يردد آى ربك بينما يدها تدير على الشعير رحاها

لما شكا المحتاج خلف رحابها رقت لتلك النفس فى شكواها

جادت لتنقذه برهن خمارها يا سحب أين نداك من جدواها

---

[١]- الآية : ٣٤ من سورة الإسراء .

[٢]- الآية : ٩ من سورة الحشر .

ترك المخالفات :

وكما يتقرب الأتقياء المفلحون بالطاعات فإنهم ينفرون من المعاصى والمخالفات ولذلك مدحهم الله تعالى فى سورة " المؤمنون " بقوله الكريم كما سمعتم آنفا (والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وهو ما يدلنا على أنهم كرهوا فاحشة الزنا التى نهى الله تعالى عنها فحفظوا أنفسهم منها حيث حرمها الله ، واكتفوا بأزواجهم اللاتى أحلهن الله حتى لا يراهم الله باغين على أعراض غيرهم ، وكيف يعتدون على أعراض غيرهم وقد قال صلى الله عليه وسلم " كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه " كما قال تعالى فى سورة الإسراء (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقد قال المفسرون تعقيباً على هذه الآية : " ولا تقربوا الزنا " أبلغ من " لا تأتوه " لأنه يفيد النهى عن مقدمات الزنا كاللمس والقبلة والنظرة والغمزة ، كما يفيد النهى عن الزنا من باب الأولى .

الاعتبار بقصة سيدنا يوسف :

وقد قص سبحانه علينا فى سورة يوسف ما كان من تعفف سيدنا يوسف عليه السلام عن فاحشة الزنا مع توافر أسبابها من دعوة سيدته التى كانت تملكه والتى غلقت الأبواب وقالت له (هيت لك) قال

(معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) وقد سمى عليه السلام الزناة بالظالمين وبين أنهم لا يفلحون .

ولنربط بين استعاذته – عليه السلام – بالله فى قوله " معاذ الله " وبين قوله تعالى فى الآية اللاحقة للآية السابقة (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) واعجب كيف كان يفر من الفاحشة فرار النافر الكاره الخائف من ربه كما يصوره قوله تعالى بعد ذلك (واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سواء إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم)[١] .

واعجبوا كيف آثر سيدنا يوسف أن يسجن ظلما عن أن يأتى الزنا الذى دعته إليه امرأة العزيز وهى سيدته ، وهو ما يحكيه قوله تعالى (وقال نسوة فى المدينة إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين * فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك

---

[١] - الآيات من ٢٥ إلى ٢٩ سورة يوسف .

كريم * قالت فذلكن الذى لمتنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين * قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم)[١] .

وكان أن سجنوه ظلما وزورا ، فتحمل عليه السلام شدائد السجن فى صبر جميل ، ولما آثر عليه السلام السجن على إتيان الفاحشة ، قلب الله له بقدرته وعطائه محنة السجن فجعلها منحة ، فقد تعرف فى السجن على نديم الملك الذى دلهم بعد خروجه من السجن على خبرة سيدنا يوسف فى تأويل الرؤيا ، وأول لهم رؤية الملك التى رأى فيها سبع بقرات سمان يأكلن سبع عجاف ، وكان تأويل الرؤيا فى أن يتولى سيدنا يوسف حكم مصر ولكنه حرص قبل خروجه من السجن أن تظهر براءته باعتراف النسوة أنفسهن فقال لمن جاءه يدعوه لمقابلة الملك (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم) فاعترف النسوة – واعترفت كذلك امرأة العزيز – بالحق وانزاح باعترافهن الباطل عن سيدنا يوسف عليه السلام وهو ما يحكيه قوله تعالى (قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين)[٢] وقد خرج من السجن بريئا كل البراءة مما نسب

---

[١]- الآيات من ٣٠ إلى ٣٤ سورة يوسف .
[٢]- الآية : ٥١ من سورة يوسف .

إليه كذبا وبهتانا . وهو ما يحكيه قوله تعالى (وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين * قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)[١] وصدق سبحانه وتعالى إذ يقول فى سورة الطلاق (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا)[٢] .

الدعوة إلى الله :

وكما رأينا منه موقف الطهر والعفاف وتجنب الفاحشة ، فإننا نراه كذلك داعياً إلى الله تعالى بين المسجونين معه وذلك ما يحكيه قوله تعالى (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى ارانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئا بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون

---

[١] - الآيات من ٥٤ إلى ٥٧ سورة يوسف .
[٢] - الآية ٣ من سورة الطلاق .

خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[١] . وهذه الدعوة إلى العقيدة الصحيحة تكلم بها عليه السلام قبل أن يعبر لهما الرؤيا استغلالا منه لحرصهما على الاستماع إليه وحسن الظن به وصدق سبحانه إذ يقول فى سورة فصلت (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين)[٢] .

<u>اتفاق الشرائع السماوية</u> :

ولو أننا ربطنا بين كلام سيدنا يوسف عليه السلام وبين الآيات التى جاءت فى مطلع سورة البقرة وفى آخرها ، بان لنا أن دعوة المرسلين الكرام جميعا اتفقت فى أصل الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، وهو ما يؤيده قوله تعالى فى سورة الأنبياء (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[٣] وتوحيد الله تعالى هو أساس الفلاح ولذلك أرسل الله تعالى رسله الكرام فدعوا أممهم أولا إلى توحيد الله توحيدا خالصا من الشرك ، ثم إلى مبدأ أداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن وإن اختلفت فى

---

[١]- الآيات من ٣٦ إلى ٤٠ سورة يوسف .
[٢]- الآية ٣٣ سورة فصلت .
[٣]- سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

جزئيات العبادات مصداقا لقوله تعالى فى سورة المائدة (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)[١] فمن وفى بدعوة رسوله فقد فاز وأفلح ومن عصى رسوله فقد خاب وخسر . وكما أن التوحيد هو أساس الفلاح فإن الكفر – ونعوذ بالله منه – هو أساس الخيبة والخسران . ولنقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة المؤمنون (ومن يدع مع الله آلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)[٢] ولنتدبر مليا فى أن سورة المؤمنون بدأت بقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون ...) وجاء فى خاتمتها (إنه لا يفلح الكافرون) .

ولنتأمل مليا فى الصورة الجلية التى يكشف عنها سبحانه من غيبة وهو يحدثنا عن يوم القيامة فى السورة ذاتها إذ يقول عز وجل فى أواخرها (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)[٣] .

---

[١]- الآية : ٤٨ من سورة فصلت .
[٢]- آية ١١٧ سورة المؤمنون .
[٣]الآيات : ١٠٢ إلى ١١١ سورة المؤمنون .

الإيمان أساس الفلاح :

فالمؤمنون يفلحون يوم القيامة حيث يفوزون بالمرام وينجون من المكروه الذى يحيق بالكافرين . وحين حكى سبحانه ما كان من أصحاب الكهف الذين فروا فى شبابهم من الكفر وأهله قالوا فيما حكاه الله عنهم فى سورة الكهف (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا)[١] وما أروع ما يصفهم الله تعالى ويزكيهم به فى قوله الكريم (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا * وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا)[٢] وقد تحقق لهم ما أملوا وأنامهم الله فى رحمته ورعايته ثلاثة قرون بل يزيد ثم استيقظوا وقالوا (لبثنا يوما أو بعض يوم) لا بل إنه تعالى أكرم باكرامهم كلبهم الذى أحبهم وتعلق بهم وصحبهم إلى الكهف فأنامه فى كرامته كما أنامهم وذكره فى القرآن الكريم كما ذكرهم فقال تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة

---

[١]- الآية : ٢٠ من سورة الكهف .
[٢]- الآيات من ١٣ إلى ١٦ سورة الكهف .

سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل)[١] وتدبروا كيف عده عاقلا منهم فى قوله رابعهم ، سادسهم ، ثامنهم ، وكيف جعل ذكراه جارية على ألسنة العابدين من أهل السموات وأهل الأرضين ، فما أفلحه من كلب وما أسعده وصدق من قال : من جاور السعيد سعد .

الإيمان والتقوى :

ومع أن أساس الفلاح هو الإيمان ، إلا أن المتبع لكتاب الله الكريم يرى أن الله تعالى قرن الإيمان بالتقوى والعمل الصالح ، ففى سورة البقرة يقول سبحانه (... واتقوا الله لعلكم تفلحون) وفى سورة آل عمران يقول جل وعلا (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)[٢] وفى المائدة يقول تعالى (... وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون) وفى سورة الأنفال يقول سبحانه (... واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وفى سورة الحج يقول جل شأنه (... يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدو ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وفى سورة النور يقول تعالى (... وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

---

[١]- من الآية : ٢٢ سورة الكهف .
[٢]- الآية : ٢٠٠ سورة آل عمران .

أهمية التوبة :

وفى مناسبة الفلاح من طريق التوبة أقول إن الله تعالى جعل توبة المؤمنين مطهرة لهم من ذنوبهم ، فإن هم تابوا إلى الله أحبهم ومن أحبه الله فقد أفلح . ونستدل على محبة الله للتوابين المتطهرين من ذنوبهم بقوله تعالى فى سورة البقرة (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[1] وإن نحن تدبرنا فى قوله تعالى فى سورة التوبة (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين)[2] لأدركنا أنه تعالى قدم التائبين على العابدين ، فجعل سبحانه التوبة مدخلا للعبادة الخالصة وللصفات الأخرى التى يحب من عبادة المؤمنين أن يتجملوا بها . والسائحون هم الصائمون ، لقوله صلى الله عليه وسلم " سياحة امتى الصيام " .

التوبة الصادقة :

ويقول العلماء : إن التوبة المقبولة إنما تحصل باجتماع أربعة أمور ، أولها احتراق القلب عند صدور المعصية ، وثانيها الندم على فعلها فيما مضى ، وثالثها العزم على تركها فى المستقبل ، ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة رضوان الله وعبوديته .

---

[1] ـ الآية : ٢٦٢ سورة البقرة .
[2] ـ الأية ١١٢ سورة التوبة

أما سادتنا الصوفية فلهم مذاقهم العالى فى التوبة ، فهم يقولون : توبة العوام من الزلات ، وتوبة الخواص من الغفلات وتوبة خواص الخواص من رؤية الحسنات ، وشتان بين تائب يتوب من الزلات وتائب يتوب من الغفلات وتائب يتوب من رؤية الحسنات . وما أروع ما يقول سبحانه فى سورة التحريم (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير)[1] والتوبة النصوح أى " الصافية " وعسى منه تعالى محققة وليست للرجاء ، لأنه تعالى كريم وإذا وعد لا يخلف وعده .

<u>الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر</u> :

أما الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الذين وردوا فى الأوصاف التى يتحلى بها كملة المؤمنين ، فهم من المفلحين بدليل قوله تعالى فى سورة آل عمران (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[2] وفلاحهم جاءهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنهم أمروا أنفسهم بالمعروف قبل أن يأمروا به غيرهم ونهوا أنفسهم عن المنكر قبل أن ينهوا

---

[1] - الآية : ٨ سورة التحريم .
[2] - الآية : ١٠٤ سورة آل عمران .

غيرهم فأحسنوا إلى أنفسهم بتزكيتها فى جنب الله تعالى بالطاعات وترك المخالفات .

ثم تعدى فضلهم إلى غيرهم من المؤمنين ، فتصدوا لدعوتهم إلى الفضائل ونهيهم عن الرذائل ، وقد خص سبحانه الأمة المحمدية بهذه المزية وجعلهم بها خير أمة أخرجت للناس ، ونستدل على ذلك بقوله تعالى فى سورة آل عمران (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[١] .

ومن فضل الله تعالى على أمتنا المحمدية أن الداعين إلى الله تعالى من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر موجودون فى كل جيل من أجيال الأمة بدليل قوله تعالى فى سورة الأعراف (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)[٢] وهم المنوه عنهم فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم والذى قال فيه صلوات الله وسلامه عليه " لا تزال من أمتى طائفة على الحق إلى أن يأتى أمر الله " وهؤلاء الدعاة إلى الله من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يورثهم الله من فضله دعوة الحق التى دعا إليها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى القائمة على كتاب الله إجمالا وعلى السنة النبوية تفصيلا .

---

[١]- آية : ١١٠ سورة آل عمران .
[٢]- آية : ١٨١ سورة الأعراف .

أهمية الكتاب والسنة :

والكتاب والسنة هما العصمة من الزيغ لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، وصدق سبحانه إذ يقول مخاطبا رسوله الأعظم صلوات الله وسلامه عليه فى سورة يوسف (قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين)[١] والبصيرة هى الحجة الواضحة والمعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل وهى المشار إليها بقوله تعالى فى مطلع سورة البقرة (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)[٢] .

مزايا الداعين إلى الله تعالى :

ويقول سيدى الإمام القشيرى عن هؤلاء الدعاة فى لطائف إشاراته رضى الله عنه : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) يعنى على بيان من ربهم وكشف ويقين وتحقيق ، وذلك أنه تجلى لقلوبهم أولا بآياته ثم تجلى لها بصفاته ثم تجلى لها بحقه وذاته ... فبمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين ... وظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغيب حقيقة الصمدية ، فوصلوا بحكم العرفان إلى عين الاستبصار .

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل فى ضرورة أسترشاد المؤمن

---

[١]- آية : ١٠٨ سورة يوسف .
[٢]- آية : ٥ من سورة البقرة .

بواحد من هؤلاء الدعاة العارفين فيما نقلناه من إلهامه الفورى المرتجل الذى أمده الله به من عطائه لأوليائه العارفين رضى الله عنه :

وعندى أن الأمر ليس كما ترى فلابد من سوق القلوب لمن يدرى
إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها على موجة التيار ما نورها يسرى

ويقول سيدى الإمام جلال الدين الرومى فى شأن هؤلاء الشيوخ الهداة المرشدين رضى الله عنه كما ترجمه من الفارسية إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان جزاه الله عنه خيرا :

سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، إن إلهام النحل هو الشهد ، وإلهام حشرة القز نسج الحرير ، وإلهام البلبل أغانى السحر وإلهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض .

صدقوهم هم مصابيح الدجى أكرموهم هم مفاتيح الرجا

اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . أقول : وقد صدق من قال :

ومن عاشر النفس الزكية لم يزل يزيد بها حسنا على القرب والبعد

<u>الشيخ المربى</u> :

ويقول سيدى الإمام ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى الشيخ المربى : ليس شيخك من سمعت منه ، إنما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته ، إنما شيخك من سرت فيك

إشارته ، وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك ولازال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه وزج بك فى نور الحضرة وقال لك : ها أنت وربك . أقول : وقد كان سيدى ابن عطاء الله السكندرى من علماء الشريعة وكان – كما حكى عن نفسه – يعترض فى بادىء أمره على التصوف والصوفية وينتقد المترددين على سيدى الإمام المرسى أبى العباس وكان معاصراً له ، فلما اجتمع به واستمع إليه أعجب به وتتلمذ فى التصوف على يديه فصار بفضل الله من أئمة الصوفية الأعلام كما بشره سيدى المرسى رضى الله عنهما وعن أسلافنا الصالحين وشيوخنا العارفين .

أما سيدى الإمام محيى الدين بن عربى طيب الله ثراه فيقول فى الشيخ المربى : شيخك هو الذى أمات نفسك قبل أن تموت . وجال بك فى عالم الملكوت ، وشيخك هو الذى أخذ منك وكشف عنك ، وشيخك هو الذى حمل عنك المشقات وأنزلك منازل القربات ، وشيخك هو الذى دلك على حالك ، لا من أخذ من مالك

وأما إمام الأئمة سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه فيقول : لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهرا مشهورا ، أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم هم ، وأين أولئك ، والله إنهم الأقلون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا ، ويزيدنا رضى الله عنه تعريفا بهم فيقول :

هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا

ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما إستوحش منه الغافلون ، عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة لدينه .

تزكية النفس طريق الفلاح :

ومن كل ما تقدم نرى أن فلاح المؤمن متوقف على تزكية نفسه بالإيمان الصحيح والعمل الصالح ملتزما فيها كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله سبحانه فى سورة الشمس (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) ومعنى دساها أى أخمدها وأخفى مكانتها بالكفر والمعصية فخاب وخسر ، وعلى ضده الذى آمن بالله وجد فى طاعته وتجنب معصيته فأفلح بذلك وأقسم الله تعالى فى مطلع السورة على فلاحه فقال سبحانه فى قسمه العظيم (والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد افلح من زكاها * وقد خاب من دساها)[1] وشتان بين الفلاح والخيبة ، وبين الفوز والخسارة ، فما أسعد الأتقياء المفلحين وما أشقى العصاة الكافرين . وصدق سبحانه إذ يقول فى سورة الأعراف (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون)[2] .

---

[1]- الآيات من ١ إلى ١٠ سورة الشمس .
[2]- الآيتان : ٨ و ٩ من سورة الأعراف .

ومن فضل الله علينا أنه زين قلوبنا بالإيمان وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، ولنقرأ فى هذه النعمة العظمى قوله تعالى فى سورة الحجرات (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم)[١] غير أنه يجب ألا يغيب عنا أن النفس البشرية مبتلاه بشهوات جسديه وآفات قلبية ، وهى بحكم هذه الشهوات والآفات أمارة بالسوء كما وصفها القرآن الكريم ، ومعنى أمارة أى شديدة الإمرة والتحكم فى صاحبها ، فهى ليست آمرة بالتخفيف بل هى أمارة بالتشديد ، ولكن الله سبحانه كلفنا بأن ننهاها عن هواها ونعارضها فى شهواتها الظاهرة والخفية ، ولأنها أمارة وعنيفة فى شهواتها ورغباتها فلابد أن تتناسب معارضتها مع قوة الشهوات والرغبات وتلك المعارضة الشديدة تحتاج من المؤمن عزما قويا وجهادا جادا متواصلا ، ولأن الفرد ضعيف فى ذاته فإنه محتاج للتعاون فى جهاده مع غيره من المؤمنين أخذا بقوله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب)[٢] والبر هو ما أمرنا الله به ، والتقوى هى ترك ما نهانا عنه ، والإثم هو المعاصى ، والعدوان هو التعدى

---

[١]- الآيتان : ٧ و ٨ من سورة الحجرات .
[٢]- الآية : ٣ من سورة المائدة .

على حدود الله ، وقوله تعالى (واتقوا الله) أى خافوا عقابه . وقوله تعالى (إن الله شديد العقاب) أى يعاقب بشدة من خالف أوامره ونواهيه سبحانه وتعالى . ويعرف إمامنا على بن أبى طالب التقوى ، فيقول كرم الله وجهه : هى الخوف من الجليل والعمل بما فى التنزيل والرضا بالقليل والإستعداد ليوم الرحيل . وهو تعريف جامع مع إيجازه كما ترون .

وللتعاون على البر أثره المحقق فى تربية النفس ، ولهذا فضل الله تعالى صلاة الجماعة على صلاة الفرد ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك التفضيل " صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة " وأوجب الله سبحانه صلاة الجمعة جماعة فى المسجد فى قوله عز وجل فى سورة الجمعة (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[1] وخطبة الجمعة إنما شرعت للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لا تصدأ القلوب بالغفلة عن ذكر الله الذى تحيا به القلوب وتزدهر . وما أصدق ما يقول سيدى أبو حمزة البغدادى وهو من أئمة الصوفية حين قال رضى الله عنه : من المحال أن تحب الله ولا تذكره ، ومن المحال أن تذكره ولا يعطيك ، ومن المحال أن يعطيك ثم يشغلك بغيره .

---

[1] - الآيتان : ٩ و ١٠ سورة الجمعة .

الأعتصام بالإسلام واتحاد المسلمين :

ويأمرنا الله تعالى أن نبذل غاية الجهد فى تقواه سبحانه وأن نتحد ولا نتفرق فيقول عز وجل فى سورة آل عمران (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)[١] وقد فسر سيدنا عبد الله بن مسعود قوله تعالى (حق تقاته) فقال رضى الله عنه : هو أن يطاع ولا يعصى ، ويذكر ولا ينسى ، ويشكر ولا يكفر ، وقد روى ذلك مرفوعا إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى دوموا على الإسلام واثبتوا عليه إلى الممات .

وقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) أى أستمسكوا بدين الإسلام أو بالقرآن لقوله صلى الله عليه وسلم : " القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم " أما قوله تعالى (ولا تفرقوا) فهو نهى عن اختلاف الكلمة التى تجلب العداوة والبغضاء ، لأنه تعالى يحب أن تكون الأمة الإسلامية يدا واحدة لتبقى عزيزة قوية مرهوبة الجانب ، وسبحانه إذ يقول فى سورة الأنبياء مخاطبا المسلمين (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)[٢] ويوجب الله تعالى

---

[١]- الآية : ١٠٢ سورة آل عمران .
[٢]- الآية : ٩٢ سورة الأنبياء .

علينا أن نحافظ على عقيدة التوحيد وعلى اتحاد كلمتنا حيث اجتمعنا على عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

معجزة القرآن الكريم :

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنبياء كذلك (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون)[١] ومن فضل الله علينا أنه أبقى لنا معجزة القرآن الكريم متحدية الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل سورة ، فعجزوا وسيظلون عاجزين وهو ما يطمئننا على سلامة عقيدتنا وصحة شريعتنا ، فلا يجوز لمؤمن أن يتأثر بدعوة أعدائنا التى ينفث سمومها وشرها بيننا أهل الكفر والإلحاد كالشيوعيين والوجوديين وسائر الضالين والملحدين ، وليستمسك بالإسلام ويعتز به ويقول فى اعتزازه به (إننى من المسلمين) بل وينصح غيره أن يستمسك بالإسلام ليكون ممن بشرهم سبحانه وتعالى بقوله فى سورة فصلت (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) وليكن على بال كل مسلم دائما قوله تعالى فى سورة آل عمران (إن الدين عند الله الإسلام)[٢] وقوله تعالى فى السورة ذاتها (ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقوله تعالى فى سورة الفرقان (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع

---

[١]- الآية : ٩٤ سورة النساء .
[٢]- الآية : ١٩ سورة آل عمران .

الرسول سبيلا . يا وليتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا)[١] ونعوذ بالله من فتنة شياطين الإنس والجن ، ومن الفتن ما ظهر منها وما بطن .

التحذير النبوى من الفتن :

ومن عجيب أمره عليه الصلاة والسلام أنه حذرنا من هذه الفتن قبل أن تقع وذلك فى قوله الشريف : " ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا " ، وأرى من واجب الآباء والأمهات أن يرعوا عقيدة أبنائهم وبناتهم وأن يشجعوهم على طاعة الله ويحذروهم من مخالفته سبحانه وتعالى ، فإن الأبناء والبنات أمانة الآباء والأمهات ، ولنستمع فى ذلك إلى قوله تعالى فى سورة التحريم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصمون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[٢] أى أعلموا بالطاعات وأحملوا أهليكم عليها خشية أن يعذبكم الله واياهم بالنار التى أعدادها للكافرين ويحرقهم بها هم وأصنامهم التى عبدوها .

بين الدنيا والآخرة :

وقد حذرنا الله تعالى من الأفتتان بالدنيا وزينتها وزخرفها ، وبين لنا أنه خلقنا للآخرة لا للدنيا وقالها صريحة فى سورة الأعلى :

---

[١]- الآيات : ٢٧ إلى ٢٩ سورة الفرقان .
[٢]- الآية : ٦ سورة التحريم .

(بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى)[١] كما قال فى سورة الذاريات (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[٢] أى هيأتهم لعبادتى بأستعداد فطرى وعقل مفكر وحواس وقدرة تمكنهم من العبادة ، وجعلت لهم فى رسولهم الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وقد تركنا صلى الله عليه وسلم كما قال : على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك – وعياذ بالله من الزيغ والضلال . وقال تعالى فى شأن أهل الدنيا وأهل الآخرة فى سورة الإسراء (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)[٣] .

اللهم بجاه نبيك المصطفى ، وحبيبك المجتبى ووليك المرتضى ، وأمينك على وحى السماء سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، نسألك أن تغفر ذنوبنا ، وتستر عيوبنا ، وتكتب لنا من عندك براءة وعتقا من النار ، وأمنا من العذاب وجوازا على الصراط وطريقا إلى الجنة . اللهم توفنا يا إلهى بكرمك مسلمين مؤمنين موحدين والحقنا بالصالحين .

آمين يارب العالمين .

وأشكر لكم حسن إستماعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

حسن كامل الملطاوى .

---

[١]- الآيتان : ٣٦ و ٢٧ سورة الأعلى .
[٢]- الآية : ٥٦ من سورة الذاريات .
[٣]- الآيات : ١٨ إلى ٢١ سورة الإسراء .